مقياس تيارات فكرية السنة الأولى ماستر ــ أدب حديث و معاصر

الأستاذة: مفيدة عليوط

المحاضرة الثامنة : الفلسفة الرشدية

توطئة

ولد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد في مدينة قرطبة سنة 520 هـ الموافق 1026م، وترعرع في حب العلم وأهله في كنف والده الذي كان من كبار علماء قرطبة وقضاتها، وشغف في حداثة سنه بدراسة الطب والشريعة وتطلع إلى العلوم الماورائية، فظهر منه نبوغ عجيب لفت إليه الأنظار، والعجيب من أمر هذا الفيلسوف الكبير أنه لا يُدرى أين درس الفلسفة والعلوم الماورائية، ومن أستاذه في هذه العلوم؟

هكذا يثبت بالواقع التاريخي أن ابن رشد لم يأخذ فلسفته عن ابن طفيل كما أثبت من قبل أنه لم يأخذها عن ابن ماجه، فيبقى أستاذه في الفلسفة غير معروف ولعله بدراسته لمبادئ العلوم الشرعية وعلم الكلام عكف على دراسة كتب أرسطو وتتلمذ عليه بواسطة كتبه، كما يظهر من تأثره البالغ بفلسفته، وعلى أي حال فهو فيلسوف كبير يكتنفه الغموض وتحيط به الاستفهامات من كل جانب، أهو فيلسوف متهور؟ كما يقول بعض الكتاب؟ أهو فيلسوف جامع بين الفلسفة والدين كما يظهر من بعض كتبه؟ أهو أشعري في عقيدته؟ أو واقفيٌ؟ أو مفوض؟ أو هو.. أو هو.. أهو باطنيٌ الخ.

موقفه من الشريعة: اتبع ابن رشد الحفيد (ت 595 هـ) أسلافه المؤولين من الفلاسفة والمتكلمين، في تأويلهم للنصوص الشرعية، لتتفق مع اتجاهاتهم واختياراتهم المذهبية المخالفة للشرع. ويُعد من أكثرهم اهتماما بالتأويل، وممارسة له.

وأما معنى التأويل: لغة، وشرعا، واصطلاحا:

في لسان العرب: التأويل هو: التفسير، والتدبير، والتقدير، ومآل الشيء الذي يصير إليه. وعبارات: التأويل، والمعنى، والتفسير معناها واحد وأما معناه في الشرع، فله معنيان: أولهما حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه، كقوله تعالى: ((قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حقا)) -سورة يوسف: 100 - ... و ((هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأوِيلَهُ يَوْمَ يَاتِي تَأوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ)) -سورة الأعراف: 53 -، بمعنى يوم يأتي حقيقة ما أُخبروا به من أمر المعاد. والمعنى الثاني هو: التفسير والبيان، والتعبير عن الشيء، كقوله تعالى: ((نَبِّئْنَا بتأويله إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)) -سورة يوسف: 36 –

وأما معناه عند السلف من المفسرين والفقهاء والمحدثين، فمعناه التفسير والبيان، وبهذا المعنى عرف هؤلاء معاني القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وأما معناه عند المتأخرين، من المتكلمين والأصوليين فهو((صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته، إلى مجازه وما يُخالف ظاهره، وهذا هو الشائع عندهم لذا يُقال التأويل على خلاف الأصل و التأويل يحتاج إلى دليل)) و هذا المعنى لم يكن السلف يُريدونه بلفظ التأويل، ولا هو معنى التأويل في كتاب الله تعالى .

أولا: مفهوم التأويل وأسبابه عند ابن رشد:

عرّف ابن رشد التأويل بأنه ((إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يُخَل في ذلك بعادة لسان العرب في التجوّز من تسمية الشيء بشبيه أو بسببه أو لاحقه أو مُقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التي عُددت في تعريف أصناف الكلام المجازي)). .

فالتأويل عنده ليس عبثًا بالنص، ولا ليًّا لمعانيه، بل انتقالًا من الظاهر إلى الباطن عند الضرورة العقلية فقط

لكن ابن رشد يشدّد على أن التأويل:

*ليس متاحًا للعامة

*ولا يجوز نشره بين من لا يمتلك أدواته

* لأنه قد يفضي إلى الفتنة واضطراب العقائد

وهذا يبرز جانبًا مهمًا في فكره العقلانية المسؤولة، لا العقلانية الفوضوية.

ثانيًا: الفلسفة بوصفها فريضة عقلية

ينطلق ابن رشد من فكرة جريئة، لكنها في غاية الانسجام مع النص القرآني، وهي أن النظر العقلي فريضة شرعية على من امتلك القدرة عليه، فكما أن الصلاة فريضة على القادر جسديًا فإن التفكير فريضة على القادر عقليًا.

ويستدل على ذلك بأن القرآن نفسه مليء بنداءات التفكير والتدبّر والنظر، مما يجعل الفلسفة — باعتبارها أرقى أشكال النظر — وسيلة لفهم المقصد الإلهي، لا أداة لمعارضته.

ثالثًا: لا تعارض بين العقل والنقل

القضية المركزية في الفلسفة الرشدية هي نفي التعارض الجوهري بين العقل والشريعة فابن رشد يقرر قاعدة حاسمة و هي : إذا كان العقل صادقًا، وكانت الشريعة حقًا، فلا يمكن للحق أن يناقض الحق، فإن بدا التعارض، فهو تعارض ظاهري لا حقيقي، وسببه أحد أمرين:

1ــ فهم حرفي جامد للنص

2ــ أو استدلال عقلي ناقص أو فاسد

وهنا لا يدعو ابن رشد إلى تقديم العقل على النص ولا النص على العقل، بل إلى إعادة القراءة وفق منهج علمي دقيق.

خامسًا/ تقسيم الناس بحسب مناهج الإقناع

يميّز ابن رشد بين ثلاث فئات معرفية:

1ــ أهل الخطابة :وهم عامة الناس، ويكفيهم ظاهر النص.

2ــ أهل الجدل :وهم المتكلمون.

3ـأهل البرهان :وهم الفلاسفة.

ولكل فئة خطاب يناسبها دون إلغاء أو تحقير، وهذا التقسيم يعكس فلسفة اجتماعية عميقة، ترى أن وحدة المجتمع لا تقوم على توحيد العقول، بل على احترام اختلافها

سادسًا/ خلاف ابن رشد والغزالي

يُساء كثيرًا فهم الخلاف بين ابن رشد والإمام الغزالي وكأنه صراع بين الإيمان والكفر، بينما هو في حقيقته اختلاف في المنهج المعرفي الغزالي رأى أن الفلاسفة تجاوزوا حدود العقل، بينما رأى ابن رشد أن الغزالي خلط بين فلسفة أرسطو وبعض الآراء الفلسفية الشاذة

دفاعًا عن الفلسفة البرهانية، لا عن كل ما قاله الفلاسفة "تهافت التهافت"وجاء كتاب

سابعًا/ العقل والكون والسببية

يدافع ابن رشد عن مبدأ السببية، ويرى أن إنكارها يؤدي إلى فوضى معرفية، حيث لا يعود للعلم معنى، ولا للتجربة قيمة فالكون عنده منظم، تحكمه سنن إلهية ثابتة، والبحث في هذه السنن هو عبادة عقلية

ثامنًا/ مآل الفلسفة الرشدية في العالم الإسلامي

من المفارقات التاريخية أن فكر ابن رشد حورب في الأندلس و أُحرقت بعض كتبه ونُفي في آخر حياته بينما ترجمت أعماله في أوروبا ودرّست في الجامعات وأثّرت في فلاسفة كبار مثل توما الأكويني وهكذا انتقل العقل الرشدي غربًا، بينما خبا شرقه

المراجع

1ـالشيخ محمد أمان بن علي الجامي، العقل والنقل عند ابن رشد، منشورات المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط11، 1978

2 ــ ابن رشد: فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، حققه محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ،ط3، 2002.

3ــ ابن منظور، لسان العرب، تح: اليازجي و آخرون، دار صادر، بيروت، 1414ه